عطفاً على الشباب والفيسبوك وما بينهما
حالة البحرين

أفاطمة علي(*)

إذا صحّت الحكمة القائلة «الشباب هم سمات عصرهم» فإن البحث في مسألة الممارسات الثقافية لهذه الفئة، نتاجاً واستهلاكاً، سيستدعي، دون ريب، البحث في أكثر العناصر تأثيراً في تحديد ملامح هذا العصر (ما هي؟) وتقرير مصيره (أي مصير؟). إنها التكنولوجيا بلا شك! إن إدراك هذه القاعدة، كائناً ما كان مستوى مجازية الحكمة الآنفة، ومساوقتها للشباب بالعصر، تحدو بنا إلى أن نستنتج أيضاً أن الشباب هم أكثر الفئات تفاعلاً لجهة التأثير والتأثر، مع ما توفره التكنولوجيا اليوم.

ومع بروز مواقع الشبكات الاجتماعية كإحدى ثمار ثورة تكنولوجيا المعلومات ومجتمع المعرفة وانتشارها بشكل باهر بين فئة الشباب في العالم بشكل عام، والشباب البحريني بشكل خاص، يطرح هذا الانتشار العديد من الأسئلة المهمة: لماذا يتواجد الشباب بكثافة في هذه المواقع؟ وما الذي يعبّرون عنه فيها؟ وكيف تأثر استهلاكهم ونتاجهم الثقافي نتيجة التفاعل معها؟

إن خدمات الشبكات الاجتماعية هي خدمات تؤسّسها وتبرمجها شركات كبرى

(*) ناشطة وباحثة شبابية مستقلة، البحرين.

لجمع المستخدمين والأصدقاء ومشاركة الأنشطة والاهتمامات، وللبحث عن تكوين صداقات، والبحث عن اهتمامات وأنشطة لدى أشخاص آخرين. ومعظم الشبكات الاجتماعية الموجودة حالياً هي عبارة عن مواقع ويب تقدم مجموعة من الخدمات للمستخدمين مثل المحادثة الفورية والرسائل الخاصة والبريد الإلكتروني والفيديو والتدوين ومشاركة الملفات وغيرها من الخدمات(١). أما الفيسبوك فهو أكثر الشبكات الاجتماعية انتشاراً مع وجود أكثر من ٤٠٠ مليون مستخدم حول العالم(٢). وتتركّز مهمة الموقع، بحسب ما تقول إدارته، في منح الأفراد صلاحية المشاركة وجعل العالم أكثر ترابطاً وانفتاحاً. يتوفر الموقع في ١٥ لغة، ويمكن لأيّ شخص الانضمام للموقع والاستفادة من خدماته التي تشمل، إضافة الأصدقاء، وإرسال الرسائل إليهم، وتكوين صفحة تحوي معلومات الفرد واهتماماته وانتماءاته، كما يمكنه الانضمام للمجموعات والصفحات التابعة لشخصيات أو مؤسسات معينة.

الفيسبوك أنشئ من قِبَل ثلاثة من طلبة علوم الحاسوب بجامعة هارفرد في عام ٢٠٠٤ من أجل تعريف الطلبة الجدد بعضهم بالبعض الآخر، وبأعضاء الحَرَم الجامعي، عبر إضافة صورهم. ثم انتشر ليشمل جامعات أمريكية أخرى حتى فتح أبوابه للجميع في سبتمبر/أيلول ٢٠٠٦. هذا الموقع لم يعد، اليوم، أداة عادية للتواصل الاجتماعي بين الأفراد فحسب، بل أصبح إحدى أبرز أدوات التغيير الاجتماعي المستخدمة في الوقت الراهن، إلى الحدّ الذي جعل دولاً كالصين، وسوريا، وفيتنام، وإيران تعمد إلى حظر الموقع ومنع استخدامه، خوفاً من انتقاد السلطة وتنامي نفوذ الجماعات المعارضة لها.

«عندك فيسبوك؟» سؤال لا يُطرح لمعرفة ما إذا كان الشخص لديه حساب في الموقع أم لا، حيث أصبح من الغريب ألاّ يمتلك شاب(ة) صفحة في الفيسبوك. إنما هو طريقة لإنهاء لقاء تمّ بين شابّين بحرينيَين تعرّف أحدهما إلى الآخر تواً أو لم يلتق أحدهما الآخر منذ زمن. لِنقُل إنه أشبه بتقليد تبادل بطاقات الأعمال، إلا أنّه أكثر شعبية وأقلّ كلفة. وبحسب إحصائية قامت بها جمعية ملتقى الشباب البحريني عام ٢٠٠٩، فإن ٨١ في المائة من الشباب البحريني يقضون أوقات فراغهم في تصفّح المواقع الإلكترونية، ويقضي ٥٠ في المائة أكثر من ساعتين يومياً على

(١) أنظر: موسوعة ويكيبيديا: http://en.wikipedia.org/wiki/Facebook

(٢) أنظر: إحصائيات موقع الفيسبوك: http://www.facebook.com/press/info.php?statistics

شبكة الإنترنت، في حين يشترك ٦٤ في المائة منهم في شبكات اجتماعية كالفيسبوك وتويتر وفلكر وماي سبايس[٣]. تعكس إحصائيات الموقع الأخيرة نموّاً مطّرداً في أعداد المشتركين تصل نسبته إلى ١٤٥ في المائة خلال عام واحد[٤]؛ ويمكننا التخمين أن هذه النسبة تشمل المستخدمين من البحرين، خصوصاً مع انتشار عدد من أجهزة الهاتف الداعمة لتطبيقات الفيسبوك، والتي تجعل من اليسير التعرف إلى عمليات التحديث التي تجري في الصفحات الشخصية أو صفحات الأصدقاء، في وهلة الحدوث كالبلاك بيري (BlackBerry) والآي فون((I Phone والهواتف النقالة التي يمكن من خلالها الدخول إلى المواقع الإلكترونية.

نوع مستجد من الدمقرطة

يجري التعامل مع الموقع ليس بصفته أداة للتواصل الاجتماعي فحسب، بل بصفته الفضاء الذي يتيح للشاب (ة) التعرف إلى ذاته، واكتشافها، ومن ثمّ التعبير عنها أمام الغير، لينتقل بعد ذلك إلى انتظار تفاعلهم معها. إن مساحة الحرية الذاتية التي تتوافر في الإنترنت، وتنعكس على الفيسبوك، تقوم على فكرة أن أيّ شخص يمكنه، عبر استخدام العديد من المصادر والأدوات المتوافرة على الشبكة، أن يأخذ من الفضاء الثقافي المتاح الشيء الذي يريد، يقصّه، ويلصقه، أو يمزجه ويجعله ملكاً له. بحيث يمكن أن يفسِّر في النهاية شخصيته ويمثّلها تماماً، ما يحب وما يكره، ما يقبل وما يرفض[٥]. إن هذه الحرية في الكشف عن الذات، افتراضياً، وبطرائق متعددة، لم يسبق لها أن أتيحت بهذه السهولة، وعلى هذا القدر من المرونة في التحكّم. لذلك يمكن اعتبار صفحة الفيسبوك جزءاً من سجّل الفرد الذاتي، غير أنه يأخذ طابعاً أكثر حميمية وأقل رسمية من السجلات الذاتية التقليدية، نظراً لما يوفره من تنوّع في الإفصاح عن الذات. من هنا يمكن فهم ما يذهب إليه مصطلح الثقافة الديمقراطية من التركيز على كلّ من الحرية الفردية والمشاركة الثقافية والتأثير المتبادل لتمكين الأشخاص العاديين من المشاركة في القوالب الثقافية من جهة، ما يساهم في تشكيل وبناء ذواتهم كأفراد من جهة أخرى[٦].

---

(٣) أنظر: Facebook.com, Twitter.com, Flickr.com, MySpace.com

(٤) أنظر: تقرير إحصائيات الفيسبوك لعام ٢٠١٠ http://www.istrategylabs.com/2010/01/facebook-demographics-and-statistics-report-2010-145-growth-in-1-year/.

(٥) أنظر: Yochai Benkler, The Wealth Of Networks, Yale University Press, 2006, p276.

(٦) أنظر: Jack Balkin, Digital Speech And Democratic Culture, Yale Law School, 2004. http://www.yale.edu/lawweb/jbalkin/telecom/digitalspeechanddemocraticculture.pdf

ويقوم موقع الفيسبوك على أساس أن لكل فرد «بروفايل» يُعدّ بمثابة سيرة ذاتية يجري تحديثها باستمرار، وتوفّر خيارات عديدة للتعبير عن الذات، نذكر منها: الصور الشخصية، النبذة الذاتية وتشمل: الاسم، العمر، الجنس، الحالة الاجتماعية، الدولة، التوجه الديني، التوجه السياسي، الهوايات، الاهتمامات، كالأفلام والكتب والموسيقى المفضلة، إضافة إلى المقولات المأثورة المفضلة، والمجموعات الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي ينتمي إليها الفرد، وكذلك الشخصيات والمؤسسات والقضايا التي يقف مسانداً لها ومعجباً بها. من خلال هذه المعلومات يمكن استجلاء شخصية الفرد والثقافة التي ينتمي إليها أو الهويات التي تشكّل شخصيته. كما تجعل من الممكن فهم نوعية النتاج الثقافي الذي يصدر عنه، وقابليته للمشاركة مع آخرين، بما يجعل من الثقافة في النهاية، عملية أكثر شفافية لمحتضنيها من جهة، وتجعل عملية النتاج الثقافي أكثر تشاركية من جهة أخرى(٧).

سبب ونتيجة

من هنا يمكن أن ندرك كيف أن ثمرات هذه العناصر الثلاثة: الشفافية، والتشاركية والحرية بصفتها «مولّدة» للثقافة والإبداع(٨) يمكن أن تنعكس على ما تحتضنه صفحات الشباب في الفيسبوك من نتاجات ثقافية متنوعة تتركز في النثر، التصميم، التصوير، الشعر، المقال، الكاريكاتير، التمثيل والموسيقى.

لذلك فإن صفحات الفيسبوك أصبحت تحمل بين طياتها تعبيرات ثقافية مختلفة، من معارض فنّية، وإصدارات شعرية ونثرية، وحفلات موسيقية. في حين أن الجامع بينها أنها تعبيرات إلكترونية متاحة بمعدل ٢٤ ساعة في اليوم، وتمتاز بعنصر التفاعلية حيث تتيح الفرصة للزوّار كي يعبّروا عن آرائهم، والنقاش فيما بينهم وبين صاحب الصفحة، أو حتى بين أنفسهم بكل أريحية. لذلك فهي توفّر تغذية راجعة مستمرة ومتجددة على فترات زمنية طويلة لأصحاب المواهب.

ويمكن الاستدلال بذلك عبر زيارة بروفايل عدد من المثقفين البحرينيين، نذكر منهم، على سبيل المثال لا الحصر، الفنانة التشكيلية وحيدة مال الله، والفنان التشكيلي عباس يوسف، والكاتب علي السعيد، والكاتبة لميس ضيف، والشاعر قاسم

(٧) أنظر: Yochai Benkler, The Wealth Of Networks, Yale University Press, 2006, p289.

(٨) أنظر: Lawrence Lessig, Free Culture: The Nature And Future Of Creativity, The Penguin Press, 2004, p28.

حداد، بالإضافة إلى فناني الغناء والموسيقى: خالد الشيخ، سلمان زيمان، محمد حداد، عادل محمود، وفناني التمثيل: إبراهيم بحر، زينب العسكري، فاطمة عبدالرحيم، إضافة إلى الإعلامية المتميّزة بروين حبيب.

إن إيصال الموهبة، عبر الصورة والرمز والكتابة، لم يكن أكثر إمكانية و أقل كلفة مما هو عليه الآن. وحتى لو لم يكن ذلك قميناً بتقديم نقد موضوعي للشاب (ة) على نتاجه الثقافي، إلا أن ما من شك في أنه يشكل داعماً نفسياً له. الشيء الذي لا غنى عنه لأي شاب (ة). ونتيجة لوجود هذا الفضاء الحر للإبداع الثقافي ظهرت أسماء جديدة من الكتّاب والفنانين والمبدعين الشباب، وأصبح هؤلاء لا يكتفون بإضافة إبداعاتهم في صفحاتهم الشخصية فقط، بل اتّجهوا إلى تأسيس مجموعات خاصة وصفحات منفصلة بقصد استعراض نتاجاتهم وجذب المزيد من «المعجبين» ـ (fans)، أسوة بمبدعين آخرين، ومنهم المصور علي الرفاعي وأحمد زاير، والمصورة عزيزة سلمان (صاحبة شركة باباراتزي للتصوير) وفنّانا الكاريكاتير محمد المهدي وغدير الستري، والفنان الموسيقي علاء غواص، والكاتب علي سعيد[٩]. ربما كانت تلك طريقتهم الخاصة في التعبير عن التهميش الذي يحيق بهم وبمواهبهم من قبل الجهات المسؤولة أو الإعلام أو المجتمع المدني. بموازاة ذلك، تساهم صفحات الفيسبوك ليس فقط في توسيع رقعة المطّلعين على المواهب الشبابية، بل أصبحت وسيلة للربح من خلال الحصول على زبائن لنتاجهم الإبداعي المعروض، كما في حالة المصورين الاحترافيين. كما تبنّت بعض الصحف بعض رسامي الكاريكاتير ونشرت رسوماتهم، وكذا الحال مع بعض كُتّاب الشعر والنثر والخواطر من الشباب.

قيم تفاعلية جديدة

إن الانتشار السريع لحمّى الشبكات الاجتماعية والفيسبوك لم يقتصر على الشباب وحدهم، بل صار يضمّ عدداً كبيراً من المثقفين والكتاب والصحافيين والفنانين البحرينيين، بل وحتى النشطاء السياسيين ونشطاء حقوق الإنسان

(٩) يمكن زيارة الصفحات في الموقع عبر إدخال كلمات البحث: Ali Photography, Ahmed Zayer - Al Zayer Photography, Paparazzi Photography, Moh'd Cartoon, Ghadeer Al-Sitri ARTS, Ala Ghawas, Ali Al Saeed.

ومؤسسات المجتمع المدني الأخرى. وفي الوقت الذي يعمل الكتّاب والصحافيون على إضافة مقالاتهم، ينبري الشعراء أيضاً إلى عرض إصداراتهم من الشعر والنثر. كما يزوّد المصورون صفحاتهم بالصور الجديدة، كذلك يزوّدها الفنانون بصور من مسرحياتهم أو بمقاطع فيديو لها. إذ يداوم كل من الدكتور نادر كاظم، الكاتب علي الديري، الصحافية رباب أحمد، الصحافي حسين خلف، على الإضافة إلى كتاباتهم في الفيسبوك ويستقبلون التعليقات عليها، كما يداوم كل من المصور فردان رفيعي، عمار البزاز والمصورة عزيزة سلمان ورسام الكاريكاتير حمد الغايب، على إضافة جديد أعمالهم في ملفات متعددة.

منذ وقت غير قليل، رسخت في الأذهان صورة نمطية عن المثقف (ة) البعيد عن المجتمع، المنطوي على نفسه في برجه العاجي، والذي لا يوجد إلا في الفضاء الخاص بالمثقفين الذين يشاركونه همومه الثقافية، ويتقاسمون معه الخطابات والمفاهيم والمصطلحات ذاتها. وقد حدّ هذا من فرص الشباب في الوصول إلى هذه الفضاءات والتفاعل معها أو الاندماج فيها، حيث كان مألوفاً أن يواجِه الشباب أزمة عدم الاعتراف به، أو عدم القبول به بسبب صغر السنّ أو ضعف التجربة، أو رغبة المثقف (ة) المكرّس في الاستئثار بالمكانة الرمزية وإبعاد المنافسين المحتملين. كل هذا جعل عملية التواصل بين الطرفَين شبه مستحيلة. ومن جهة أخرى فإن الثقافة، بقالبها الروتيني القارّ، لم تعد تستقطب الشباب، وكذلك لم تستقطبه الفعاليات المستهلكة. يمكن القول إن الشاب(ة) البحريني، كما كل شاب(ة)، يسعى لاكتساب الثقافة ولكنه يبحث عن ثقافة بمعايير معينة تتناسب مع جيله وعصره، ثقافة لا تخلو من عناصر الترفيه، والمقصود هنا الترفيه الذي يستبطن صيغة غير رسمية في التواصل، مثلما يمكن أن نجد مثالاً له في الفيسبوك أو أي فضاء اجتماعي آخر.

إلى حد ما، يمكن الاطمئنان إلى أن هذه الصورة النمطية عن المثقف(ة) أخذت تتبدد في الآونة الأخيرة، كما لم تعد الفضاءات التي تجمع المثقفين والشباب محدودة ونادرة، مثلما كان عليه الحال في السابق. ذلك أن سرعة انتشار الفيسبوك وسهولة التواصل من خلاله فتحا آفاقاً جديدة لعلاقة المثقف (ة) بالشاب (ة) في البحرين. الشاب (ة) أصبح بإمكانه إضافة المثقف (ة) فيما لو وافق الأخير على ذلك، مما يمكّنه من الاطّلاع على مقالاته ومتابعة التعليقات عليها والتعبير بحرية عن رأيه حيالها. كما يمكن له أن يراقب افتراضياً فضاء التفاعل الذي ينشأ بينه وبين

الأشخاص، كما في حالة الكاتب علي الديري عندما أضاف مقالة كتبها تحت عنوان «عزازيل الأديان» يتحدث فيها عن رواية يوسف زيدان الفائزة بجائزة «بوكر» للرواية العربية لعام ٢٠٠٩. نشأت في الصفحة مجموعة حوارات جمعت بين الكاتب وعدد من الشباب تمثّلت في خمسة عشر تعليقاً، وإذ يذكر الديري في مقاله أن «الدين المطلق من التاريخ، هو مطلق من الإنسان، والدين من غير إنسان لا معنى له. لا معنى لدين معلّق في السماء. كي ينطق هذا الدين، عليه أن ينزل إلى الإنسان والإنسان حيث التاريخ(...) لذلك على الأديان أن تعتذر وتعترف بأخطائها في التاريخ، فليس الفرد وحده صاحب الخطيئة، بل الأفراد حين تصير جماعات تزداد خطاياهم، وهي غالباً لا تصير جماعات إلا بالدين»(١٠).

وعطفاً على ذلك يتساءل الشاب سلمان حسين: «أيّ دين؟ وأيّ تاريخ بالتحديد؟.. ما دامت الأمور ليست مطلقة، إذن فالرواية، بغضّ النظر عن اتجاهاتها، ليست مطلقة هي الأخرى.. كيف يكون الدين تجربة الإنسان في التاريخ؟ هل يُعدّ ذلك كافياً لتفسير تفاعلات الدين والإنسان لنقوم بإدراج الدين في رفوف التاريخ؟» ثم يعقب مجدداً: «بالنسبة لحديث الفيلسوف برنارد راسل، وهو صاحب مدرسة هائلة بالمناسبة في هذا المجال، إلا أنه حين قال « توجد حقيقة عجيبة أن الوحشية تزداد وأن الوضع العام يسوء كلما قوي الدين، وكلما اشتدت العقيدة الدينية»، بودي أن أسأل ثانيةً: أيّ دين؟ وأية عقيدة دينية؟ مع برهة تفكير.. هل كان اشتداداً للدين أم اشتداداً للعنف الغريزي الخارج عن إطار الدين؟ هذا يقودنا إلى السؤال الموجود في ردّي السابق: هل كل الدين هو تجربة الإنسان في التاريخ؟!». ويرد عليه الكاتب: «الدين ما زال تجربة الإنسان في التاريخ، فما يحدث في تاريخنا المعاصر من حروب هويات وإرهاب وتسامح وسلام وحوار أديان وثورات دينية ودولة دينية وتجارب علمانية، هذا الكلّ المركب من تجربة الإنسان في التاريخ مع الدين هو الدين، أما النصوص التي هي معلقة في السماء ولا تجري في التاريخ، فلا أستطيع أن أعتبرها ديناً يخص تجربة البشر، تبقى تلك خارج تجربتنا التاريخية والإنسان كائن تاريخي».

الأمر لا يقف هنا فقط بل يمكن أيضاً التعرّف إلى الفعاليات المستقبلية التي

(١٠) وصلة المقال في صحيفة الوقت:
http:www.alwaqt.comlblog art php?baid = 11134

سجل المثقف (ة) رغبته في حضورها أو مساهمات الآخرين التي علّق عليها، مما يمهّد لعملية التواصل المباشر بين الطرفَين. ويمكن الاستشهاد هنا بتجربة الصحافي فواز الشروقي، الذي كوّن رفقة إضافية من خلال المتجاوبين والمتجاوبات مع «الملاحظات»[١١] التي ينشرها على الفيسبوك، والتي تأخذ في أغلبيتها طابع النقد للحركات الإسلامية، انطلاقاً من تجربة له سابقة في هذا المجال. وكيف انتقلت الرفقة الافتراضية الناشئة إلى لقاءات مباشرة تحدث بين فيْنة وأخرى في أحد الفضاءات الاجتماعية المتاحة، مثل المقاهي وغيرها. وفي مرة واحدة على الأقل، تكفّلت الصحافية منى المطوع بنقل وقائع جلسة من جلسات هذه المجموعة في مدوّنتها[١٢]، وكانت عبارة عن استطلاع آني بشأن أهم الكتب التي يقرأون أو التي قرأوا، وفي السياق نفسه امتدت الحوارات الشبابية في موضوع: «ما هو آخر كتاب قرأته؟» في الصفحة المخصصة بحملة «كلنا نقرأ» التابعة لبرنامج تاء الشباب[١٣]، لتصل لأكثر من تسعين إضافة أجاب فيها عدد كبير من الشباب عن الأسئلة التالية: «ما هو آخر كتاب قرأته؟ هل أعجبك؟ كيف قمت باختياره؟ حدثنا عنه»[١٤].

كما تتضح هذه الحالة مع مثقفين آخرين وصنّاع رأي، نذكر منهم رئيس تحرير مجلة العلوم الإنسانية ومجلة ثقافات بجامعة البحرين الدكتور نادر كاظم الذي يساهم بمقالات أسبوعية في صحيفة الوسط، ويضيفها على صفحته في الفيسبوك، كما يستقبل العديد من التعليقات عليها. وقد تمخّضت سلسلة تعليقات القراء وردود الكاتب عن خلق علاقات صداقة حقيقية بعد أن كانت افتراضية مع عدد من الشباب الذين يتابعون مقالاته، ويعبّرون عن آرائهم حولها، لينتقلوا في ما بعد من الفضاء الإلكتروني إلى اللقاءات الشخصية مع الكاتب لتبادل وجهات النظر

(١١) تضاف المقالات والتدوينات ومعظم النصوص الأدبية أو الفكرية في صفحة الفيسبوك عبر أحد أبرز تطبيقات الفيسبوك استخداماً ويطلق عليها: (ملاحظات/Notes)

(١٢) من أرشيف مدونة الكاتبة في ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٩:
http:llmonaalialmotawa.maktoobblog.com/1601401/

(١٣) برنامج ثقافي شبابي نُظم برعاية وزارة الثقافة والإعلام ضمن فعاليات مهرجان البحرين الثقافي لعام ٢٠٠٩، سُمي تاء الشباب اختصاراً للتاءات الثلاث في «تعمير، تطوير، تجديد». وهو برنامج تتوزعه عناوين عامة تصب في خانة التحفيز على القراءة والدعوة لها، والالتفات للهندسة المعمارية، والتبئير على تراث ومعمار البحرين ككل.

(١٤) أنظر: http://www.facebook.com/topic.php?uid=92936614480&topic=8571

والتعرّف إليه عن قرب. زد على ذلك أن صورة المثقف (ة) «العليم» (ة) في مقابل صورة الشاب (ة) «المريد» (ة) لم تعد مهيمنة كما كانت. ذلك أن كثرة تصفّح الشباب للمواقع الإلكترونية أنتجت حالة من تبادل المعلومات بين الطرفَين في الموضوعات نفسها. كما يمكن أن يمثّله قيام شابة بإرسال مقال قرأته في كتاب أو صحيفة إلكترونية للدكتور نادر كاظم عندما تجد أنه ذو صلة بمقالاته، أو إصداراته، أو حينما يقع ضمن دائرة اهتماماته. أو حالة شاب آخر، كمثال ثانٍ، حين يقوم بإعلام الكاتب علي الديري بأنه تمّت إضافة المقال الذي نشره في صحيفة بحرينية حول كتاب «أن تكون عربياً في أيامنا» في الموقع الرسمي لعرب ٤٨، وهو موقع عربي إخباري يتابع الشأن الإسرائيلي والفلسطيني والعربي، ويُعنى بكل ما ينتجه المفكر عزمي بشارة(١٥).

يلعب الموقع دوراً مهماً كأداة رئيسية للتسويق بين صفوف الشباب، الأمر الذي سهّل على الجمعيات الشبابية والفعاليات الثقافية مهمّة استقطاب الأعضاء والحصول على جمهور من المتابعين والأعضاء. ويمكن الاستشهاد على ذلك بتجربة إحدى فعاليات مهرجان صيف البحرين الثقافي الشبابية التي تقع تحت مسمى «**تاء الشباب**»، والتي تمكنت من الحصول على حضور شبابي كبير عن طريق الفيسبوك. وكان بعض الشباب يشاركون في فعاليات ثقافية كقراءة في كتاب معيّن وحلقة نقاشية مع كاتب بحريني أو عربي للمرة الأولى، وبذلك كان يتعيّن عليهم قراءة هذه الإصدارات الثقافية قبل مناقشتها، مما خلق حالة جديدة من إدماج الشباب في الساحة الثقافية في البحرين.

ولم يقتصر دور الشبكات الاجتماعية على تشكيل علاقة افتراضية تطوّرت في ما بعد إلى علاقة واقعية بين شخصين فقط، بل إنها تنامت وانعكست على العلاقات الافتراضية، فالواقعية، للجماعات. لذلك، فإن عدداً من المجموعات الشبابية الافتراضية في الفيسبوك بدأت بخلق حيزها الخاص في الواقع بشكل يستدعي إعادة النظر في الفيسبوك كأداة للتسويق الاجتماعي للمجموعات التقليدية إلى أداة لخلق جماعات

(١٥) وصلة المقال: http://www.arabs48.com/display.x?val=%C7%E1%CF%ED%D1%ED&cid=11&sid=19&id=68693&ar=

(يمكن الرجوع للصفحات الشخصية للدكتور نادر كاظم والدكتور علي الديري ـ ولذلك لا يمكن إضافة المصدر لأنها صفحات شخصية ليست متاحة للعموم).

افتراضية جديدة قد تتحوّل مع الزمن إلى جماعات تقليدية، أو تكتفي بصورتها الافتراضية تبعاً لميول الأشخاص المنتمين إليها. إذ حدث أن قرّرت مجموعة من طلبة وطالبات المدارس الثانوية تأسيس مجموعة شبابية تحت مسمى «Simply Youth» في الفيسبوك بقصد تنظيم عدد من الفعاليات التطوعية الهادفة إلى تنمية مهارات أعضائها. وحصل أن تضخّم عدد أعضاء المجموعة حتى أعلنت إحدى الجمعيات الشبابية احتضانها. لكن هذا الائتلاف الناشئ بينهما لم يلبث أن انفضّ. فعالية واحدة فقط جرى تنظيمها بالشراكة حيث اختفى كل أثر للمجموعة نهائياً، في الواقع الافتراضي، كما في وجود أعضائها بين صفوف الجمعية الشبابية. ويمكن أن يُعزى ذلك، في التحليل، إلى الطبيعة الكامنة في بنية الشبكات الاجتماعية، بشقّيها الافتراضي والواقعي حيث تنشأ لتلبية هدف محدد، غالباً ما يكون محدوداً، وسهل التحقيق في مدة قصيرة، ولا يتطلّب الانخراط في هذه الشبكات قدراً كبيراً من الثقة بين أعضائها. وحالما يتم تحقيق هذا الهدف سرعان ما تنفضّ هذه المجموعة، تُلغى، أو تتحول إلى ما يشبه مصدراً للأرشيف ليس أكثر، كما في الحالة التي جرى الحديث عنها[١٦]. وعلى الرغم من أن هذه الخاصية، تأخذ صفة الطابع التكويني في بنية الشبكات الاجتماعية، إلا أنّ البعض قد يعدّ ذلك نقيصة في هذا النوع من التواصل، وفي قدرته على تحقيق أهداف جذرية. فإذا كان كل ما يتطلبة الأمر هو ضغطة زرّ يقوم بها مدير المجموعة على خيار محو المجموعة «(delete group)»، لتُلغى من جرائها قائمة الأعضاء والصور وكل ما له صلة بالقائمين عليها، أفلا يدعو ذلك إلى التساؤل عن الدور الذي يمكن أن تلعبه هذه المجموعات وهي بهذا المستوى من الهشاشة؟

من النخبوية إلى الشعبوية

إن انتقال عدوى الفيسبوك وسرعة انتشاره بين الأوساط الشبابية ثم النخبوية، وصولاً إلى كافة أفراد المجتمع، لم يعد ظاهرة يمكن تجاهلها من قبل مؤسسات الدولة بقطاعيها العام والخاص، إضافة إلى مؤسسات المجتمع المدني. وبرز مؤخراً العديد من المقالات والأبحاث التي تتناول الدور الذي يمكن أن تلعبه

(١٦) تشارلز تيلي، «الحركات الاجتماعية» ١٧٨٦-٢٠٠٤، ترجمة ربيع وهبه، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥.

الشبكات الاجتماعية في تحقيق أهداف هذه المؤسسات، فيما لو قامت بالاستفادة من المميزات التي تتيحها شبكة الفيسبوك، على سبيل المثال، من أجل تحقيق أهدافها والوصول إلى قاعدة كبيرة من الأفراد المستهدفين. من هنا، يمكن تغيير النظرة النمطية من الفيسبوك بصفته أداة للتواصل الاجتماعي بين الأفراد إلى واحدة من أبرز أدوات التسويق التجاري والاجتماعي والسياسي والثقافي على حد سواء. إذ إن كثيراً من المحللين، يُعيد الإعلان عن نتائج الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة المري أميركية سببَ نجاح حملة باراك أوباما، والارتفاع التاريخي في نسبة عدد المصوتين من المواطنين الأمريكيين بشكل عام، ومن الفئات الشبابية بشكل خاص، إلى التسويق المكثّف الذي استخدمته حملة أوباما للشبكات الاجتماعية. وهي ملاحظة أدركها كثر من المؤسسات البحرينية، ما أدى إلى أن تسعى المراكز والفعاليات الثقافية إلى حجز حيّز لها في صفحات الفيسبوك، تقوم من خلاله بتوعية الجمهور بالمؤسسة، ماهيتها، وأهدافها، وبالتسويق لبرامجها وفعالياتها، وأخيراً بالتواصل مع جمهورها الحالي والمستهدف. وبذلك تتمكن من الحصول على قاعدة عريضة من المستفيدين من البرامج والفعاليات التي تقدمها.

من اللافت أن هذه الظاهرة لا تقتصر على المؤسسات الثقافية الأهلية فقط، بل حتى المؤسسة الرسمية أخذت تلجأ إلى ذلك. فوزارة الثقافة والإعلام خصّصت لها صفحة خاصة[١٧] تعلن من خلالها عن الفعاليات الثقافية، إلا أن عدد المشتركين بها حتى اللحظة لم يجاوز المائة وأربعين عضواً فقط، بخلاف مؤسسة خاصة مثل صالة البارح الثقافية التي استقطبت (٩٧٣ عضواً) وصالة الرواق (٨٥١ عضواً) ومركز عبدالرحمن كانو ـ الملتقى الثقافي الأهلي سابقاً ـ (٧٤١ عضواً) والمتكأ الثقافي (٥٨٣ عضواً).

في مقابل الصفحات الدائمة للمراكز والصالات الثقافية توجد صفحات موقتة لأبرز الفعاليات الثقافية في البحرين، منها تاء الشباب وحملة كلنا نقرأ، ومعرض الكتاب البحريني.

لذلك يمكن القول الآن إن الفعاليات الثقافية في البحرين لم تعد تتخذ طابعاً

(١٧) لزيارة الصفحة يمكن إدخال كلمات البحث: وزارة الثقافة والإعلام | الفعاليات الثقافية أو زيارة الوصلة التالية:

نخبوياً كما كانت سابقاً – يمكن التذكير هنا باستضافة كل من المفكرين محمد أركون وأدونيس ومحمد خاتمي والشاعر محمود درويش في مواسم ربيع الثقافة السابقة، وهو أمر خلا منه الموسم الحالي ٢٠١٠؛ بل إن عملية التخطيط والإعداد للفعاليات والمهرجانات الثقافية باتت تركز على الذوق العام على حساب ذوق النخبة، من خلال زيادة عدد الفعاليات التي تستقطب الأطفال والشباب في مهرجان ربيع الثقافة ومهرجان صيف البحرين الثقافي، بالإضافة إلى ارتفاع عدد الأمسيات الطربية والمنوعة والعروض الأدائية في مقابل انخفاض عدد الفعاليات التي تهتم بمسائل الفكر والثقافة الجادة التي تحاكي ذوق النخب عامة.

في طور البلورة

ثمة فكرة رائجة ترى أن الشباب الجديد يعيش غربة حيال التصريفات الثقافية التي تتسم بالجدية، أو حيال ما يتفاعل داخل صوالين الفكر والثقافة. لكن هذه الفكرة تقابلها اليوم إحصائيات متكررة تشير إلى ارتفاع نسب انتشار الكتب الإلكترونية وتداولها لدى الفئات الشابة، إضافة إلى الزيادة الملحوظة في أعداد المتابعين لمواقع الصحف الإلكترونية، ولما توفّره من تسهيلات تتصل بالتحديث الآني وميزة الأخبار العاجلة واستخدامات المالتميديا والمستجدات في عالم التقانة[١٨]. في حالة صحيفة واحدة على الأقلّ، وهي صحيفة الوسط البحرينية، يتم توفير كل هذه التسهيلات لزوار الموقع، التحديثات على مدار ٢٤ ساعة، الأخبار العاجلة مجانية للمشتركين في خدمة «البلاك بيري»، وقناة الوسط أونلاين التي تستخدم المالتميديا في الإعلام. كل هذا إلى جانب نشاطها الرئيس المتمثل في الصحيفة الورقية، ما يجعل الصحيفة تحصد مقروئية عالية. وبحسب موقع أليكسا العالمي لتقييم المواقع ورصد أكثرها استقطاباً للزوار، فقد احتلّت صحيفة الوسط مرتبة متقدمة جداً باعتبارها أكثر المواقع زيارة في دولة البحرين بعد محركات البحث ومواقع البريد الإلكتروني والشبكات الاجتماعية، تليها في ذلك صحيفة «جلف ديلي نيوز» الإنجليزية التي تصدر عن دار أخبار الخليج [١٩].

(١٨) بحسب دراسة أعدتها جمعية ملتقى الشباب البحريني فإن ٤٢٪ من الشباب يقضون أوقات فراغهم في القراءة والمطالعة والدراسة.

(١٩) أنظر: http://www.alexa.com/topsites/countries/BH

الشباب يقرأون إذن لكن بطريقتهم الخاصة، ويتبادلون في ما بينهم الكتب والمقالات الإلكترونية والقصاصات الإخبارية التي تشدّ انتباههم، ويدخلون في نقاش حولها. معظمهم يكتفون بقراءة الأجزاء التي تثير انتباههم وتغذي بحثهم عن المعرفة، ويبتعدون عن قراءة كل ما يتطلب وقتاً أكثر، وجهداً أكثر ونفساً أطول مما يتحملون، لا لشيء إلا لأنهم خُلقوا في زمن السرعة، السرعة التي تتطلب سرعة البحث عن المعرفة، وسرعة الحصول عليها، وسرعة استثمارها أيضاً. ولذلك فهم يتداولون أشعار قاسم حداد ومحمود درويش لكنهم لايقرأون الدواوين بالضرورة. ويستمعون إلى المقاطع الغنائية لهدى عبدالله وجاهدة وهبه وحتى فيروز، لكنهم ليسوا على استعداد للاستماع إلى هؤلاء بانتظام. كما أنهم يطّلعون على التجارب العالمية لتطوير نتاجهم الثقافي في محاولة مستمرة للتميّز والوصول إلى القمة. ولذلك فإنه بات من الممكن الوصول إلى نتيجة مفادها أن هذا التنوع المستمر والتغيير الديناميكي في الاستهلاك والإنتاج الثقافي للشباب في البحرين من شأنه أن يرسم معالم ثقافة شبابية جديدة في طور البلورة تتسم بالتفاعلية والمعرفة المرحة.

ما يشبه الاستشراف

كما يُنظر إلى التنوّع في المسارات والخطابات الثقافية الناتجة من مساحات الإبداع المتوفرة في الشبكات الاجتماعية على أنه العنصر الرئيسي المساهم في زيادة المجالات الثقافية التي من الممكن لأيّ فرد أن يصل إليها، فإن قدرة الفرد على الإبحار في البيئة الثقافية، عبر التشكيل والمشاركة والاهتمام، نمَت سريعاً ومنحت هذا الاختلاف النوعي أهمية كبرى[٢٠]. ذلك أن الميزات التي تتمتع بها تكنولوجيا المعلومات الرقمية واقتصاديات صناعة المعرفة الشبكية (Networked Information Economy)، إضافة إلى الممارسات الاجتماعية في الفضاء الشبكي، كفيلة بتعظيم الدور الذي يمكن أن يلعبه الأفراد في صناعة الثقافة. وتسهم هذه الصناعة في نهاية المطاف في جعل الأفراد قراءً ومشاهدين ومستمعين رفيعي الثقافة (Sophisticated)[٢١].

وعلى الرغم ممّا تتفرد به هذه الثقافة المؤسسة بتأثير الشبكات الاجتماعية من

(٢٠) Yochai Benkler, The Wealth Of Networks, Yale University Press, 2006, p276.

(٢١) Yochai Benkler, The Wealth Of Networks, Yale University Press, 2006, p275.

مميزات تشمل الشفافية والشراكة والحرية، إلا أن تبعاتها السلبية على الواقع الثقافي لشباب البحرين ليست من النوع الذي يستدعي الإغفال. فالإصدارات الشبابية «الورقية» في مجالات الفكر والأدب والعلوم تكاد تكون شبه معدومة، تليها في الندرة العروض الموسيقية فالمعارض الفنية. ويمكن ربط هذه الظاهرة بمسألة استسهال الكتابة المنتشرة لدى عموم الشباب. فالمساهمة الفعالة في التعليق على ما يكتبه كبار المثقفين، والدخول في حوارات مع شباب آخرين عبر الفيسبوك، يتيحان للفرد تحقيق الذات والحصول على احترام الآخرين وتقديرهم، فضلاً عن اعتباره مثقفاً شاباً، ما يبعده عن التفكير في تناول موضوع ثقافي معيّن والتخصّص فيه وإصدار كتاب حوله. كما أن الاستمرار في تسجيل الآراء والمواقف في فضاء الأنترنت كملاحظات (Notes)، بدلاً من إصدارات مكتوبة، يطرح تساؤلات عدة بشأن الكيفية التي يمكن فيها دراسة اتجاهات الشباب والتيارات الثقافية التي ينتمون إليها. وهل ستظلّ هذه الكتابات حبيسة العالم الافتراضي؟ أم أننا سنشهد ببلوغرافيا النتاجات الشبابية على الفيسبوك؟ ما هي تداعيات سهولة سرقة النتاجات الفكرية والثقافية، وادّعاء الهويات الزائفة، على الواقع الثقافي؟ وما هو التوازن المطلوب القيام به للدفع نحو ممارسات ثقافية معيّنة لدى الشباب، أو رسم ملامح مجالات ثقافية جديدة في الساحة؟ تلك أسئلة نفتحها ونتركها برسم الاستئناف.